بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حين دعتْنى جامعة الرياض – مشكورة – فى شهر مارس لسنة ١٩٧٣ لإلقاء محاضرة بها دعانى عميد كلية الآداب فيها وزملاؤه من أساتذة قسم اللغة العربية للحوار معهم ومع طلابهم فى موضوع يتصل بتاريخ شعرنا العربى واخترت موضوع طوابعه الشعبية ومداها فى حِقَبه القديمة .

ورأيت أن أبسط هذا الموضوع فى بحث يتناوله على مر العصور من القديم إلى الحديث ، حتى أصحِّح الرأى المخطئ الذى ذاع وشاع على ألسنة كثيرين ، والذى يزعم أصحابه أن شعراء العربية كانوا بمعزل عن شعوبهم ، فهم يتغنَّوْن بأشعارهم للطبقات العليا فيها فحسب ، معرِّضين كرامتهم لغير قليل من الهوان فى سبيل ما يبتغون من العيش والكسْب والمكانة لأنفسهم . وهذا – ومثله كثير – يُقال فى عصرنا عن الشعر العربى ، وأنه كان تجارة مربحة تقدَّم لطبقات أرستقراطية ، دون أن يفصح عن أحاسيس الشعوب العربية وما عاشته من ضنك وضيق فى بعض الأزمنة .

وطبيعى أن يُلْقَى ذلك إلقاءً دون بحث أو ما يشبه البحث ، لسبب يسير ، وهو أن الشعر العربى عُمِّر قرونًا طوالا جعلت التعرف عليه – فى وضوح – شيئًا شاقًّا عسيراً ، غير أن من يُنْعم النظر فى تاريخه الطويل ونصوصه الكثيرة منذ العصر الجاهلى سيجد شعراءه يصورون دائمًا ما ألمَّ بشعوبهم من أوقات رخاء ومن أوقات شدَّة ، مهما اختلفت الأزمان والحقب ، ومهما تفاوتت الأقطار والبلدان ، ومهما تعاقبت الأحداث والخطوب .

وواضح أننا نقصد بكلمة الطوابع الشعبية فى الشعر أنه يَنْفصِلُ من قلوب شعوبه وأفئدتها فى مختلف العصور ، فهو دائماً يصوِّر حياتها وآمالها وآلامها ، سواء فى عصور الابتهاج أو فى عصور الابتئاس . وكان هذا التصوير على أتَمِّه فى

العصرين الجاهلى والإسلامى ، إذ لم تكن هناك لغة عامية تشارك الفُصْحَى ويستظهرها العرب فى حياتهم اليومية العاملة ، إنما حدثت هذه اللغة فى العصور التالية ، ومع ذلك ظل الشعر الفصيح هو الذى يترجم عن مشاعر الشعوب العربية وأحاسيسها المختلفة فى حين انحاز الشعر العامى — منذ ظهوره — أزجالا وغير أزجال إلى الفكاهة والهزل ، إزْجاءً للفراغ عند بعض المتأدبين . وتملُّحا وتظرُّفاً ، ومضى على ذلك إلى اليوم ، إذ نراه منتشراً فى المجلات الهزلية .

ومعنى ذلك أن الشعر العربى ظل يتمثل فى وضوح حياة العرب وطوابعها الشعبية طوال عصوره ، أما فى العصرين الجاهلى والإسلامى فالأمر واضح لأنه لم يكن هناك شعر سواه ، ولم يكن هناك أيضاً سوى الفُصْحَى ، وأما فى العصور التالية فمع ظهور اللهجات العامية والشعر العامى ظل هو الذى يتمثل فى قوة تلك الحياة بطوابعها الشعبية . ويمكن أن نتخذ لذلك مقاييس — منذ العصر العباسى — تسبر أغواره ، منها مشاركته فى الحياة السياسية والاجتماعية والوجدانية والدينية مشاركة خصبة ، ومنها انتماء كثير من أصحابه إلى الطبقات الدنيا فى شعوبهم . ومنها سيرورته وذيوعه فى الألسنة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، بحيث لم يظهر شاعر كبير فى إقليم عربى إلا رَوَتْ جميع الأقاليم العربية الأخرى أشعاره ، ودارتْ فى جميع الأفواه على نحو ما نعرف عن المتنبى . فشعره يتداوله جميع العرب فى أوطانهم المختلفة ، من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر .

وكان مما أثر آثاراً بعيدة فى انتشار الشعر العربى من قديم تغنّى المغنين والمغنيات به وتلحينه على الآلات الموسيقية . حتى إذا كان العصر الحديث شاركت الغناءَ فى انتشاره المطابعُ والصحفُ واتساع التعليم والإذاعة المسموعة والمرئية ، مما جعله يزداد انتشاراً وتغلغلا فى الشعوب العربية ، وليس ذلك فحسب ، فقد اتسع تمثله لطوابع حياتها الشعبية العامة . إذ لم يعد الشعراء يقدمون منه شيئاً للطبقات الأرستقراطية ، فقد تحولوا جميعاً إلى شعوبهم ، وأخذوا يؤثرونها بما ينظمونه ، محاولين — بكل ما وسعهم — أن يصوروا لها كل ما احتدم فى نفوسها من مشاعر وطنية وقومية ودينية ووجدانية . والله ولىّ الهدى والتوفيق .

القاهرة فى ١٥ من يناير سنة ١٩٧٧ م .

شوقى ضيف